جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية
Naif Arab University For Security Sciences

شخصية الشاهد ودورها في الكشف عن الجريمة

الدكتور ابراهيم ابراهيم الغماز

الرياض

1408 هـ - 1988 م

شخصية الشاهد ودورها في الكشف عن الجريمة

اللواء الدكتور ابراهيم ابراهيم الغماز(*)

نتناول في هذا البحث جانب القدرات الشخصية للشاهد كأحد العوامل التي تؤثر في شخصيته، ومن ثم تلعب دوراً كبيراً في تأدية الشهادة وعلى المحقق أن يلم بهذه العوامل حتى يستطيع أن يقدر قيمة ادلاءات الشاهد ليصل الى الحقيقة.

القدرات الذهنية:

ان الانسان يتطور بدرجة كبيرة منذ ميلاده الى حين انتهاء حياته، وفي هذه اللحظة الأخيرة فان كثيراً ما يترك خلفه مشاكل متعلقة به شخصياً وأهمها من وجهة نظر الشهادة ما يدلي به من أقوال في هذه اللحظة عن السبب الذي أودى بحياته، وتقدير قيمتها فيما بعد.

ان لكل مرحلة من مراحل العمر تأثيرها على بعض القدرات الطبيعية والعقلية التي لا يمكن الفصل بينها، اذ لا يمكن تجزئة الانسان، فمن يتمتع بقوة ملاحظة طيبة نتيجة لسلامة حواسه من نظر وسمع وغيرهما . . فهو يتمتع بالضرورة بحالة نفسية طيبة أيضاً.

(*) أستاذ بكلية الشرطة . الكويت.

فنحن لا ندرك بحواسنا، ولكن هناك بعض العوامل النفسية تتدخل وتشارك الادراك في الحصول على الصورة السليمة أو المهزوزة، فحالتا الارهاق وتقلب المزاج لهما نصيب كبير في الحصول على الصورة المشاهدة، ويجب عند سماع الشاهد مراعاة سنه أولا، والاَّ يطلب منه معلومات الاَّ في الحدود التي يمكنه أن يقدمها هو شخصياً في هذه المرحلة من العمر.

هذا وأن استعمال حاسة ما تخضع من جهة أخرى للصحة العامة للفرد، ولصحة العضو الحاسي ذاته، فنحن لا نرى الاَّ اذا كانت الآلة البصرية في حالة جيدة وهكذا، فالذاكرة يصيبها بعض الاضطرابات في سن الشيخوخة، كما أن القدرة على التعبير تنمو من الناحية العملية مع تقدم السن الى حد معين ليس هو بالضرورة عتبة الشيخوخة، ويمكن أيضاً أن تتحسن عن طريق الحكم والتبصر في الأمور حتى الى الوقت الذي تصاب فيه نتيجة للمرض أو كثرة الأسباب الراجعة الى الشيخوخة.

وسنقسم هذا المبحث الى أربعة مطالب نتناول فيها ادلاءات كل من الأطفال والنساء والشيوخ وأخيراً شهادة من يحتضر وقيمتها.

المطلـــب الأول
ادلاءات الأطفـــــال

من الأمثال الدارجة والخاطئة أن الحقيقة تخرج من فم الأطفال، ومن الممكن أن نتقبل هذا المثل لأنهم يتحدثون الى الغير عما يحدث في الحياة اليومية العائلية، بقصد التسلية ولفت الأنظار اليهم، ولكن عندما يتعلق الأمر بالشهادة فان ذلك يختلف تماماً اذ يجب ان نحترس من أقوالهم، ولقد قال البعض ان الطفل يكذب كما يتنفس دون أن يشعر..

الحقيقة لدى الطفل:

ان أهلية الشهادة لدى الطفل تتعرض للتطور بالنسبة لأمانة وصدق ادلائه حسب سنه، ان الطفل في حياته الأولى يكون شغوفاً بان يسمع ويرى ومتعطشاً لاكتشاف عالم جديد بالنسبة له، لذلك نجده دائماً وباستمرار يتساءل: لماذا؟ انه ينتبه باستمرار للأقوال المتبادلة بين أفراد أسرته، وإن صادفته أقوال لا يفهم معناها فانه كثيراً ما يحتفظ بها ليبحث عن معناها فيما بعد، وفي الحقيقة فكم من الاسرار يحيط بعالمه فتدهشه أو تخيفه؟! وكم يصيبه من الألم عندما لا يتمكن من فهمها الحقيقي، اذ قد يشعر بضعفه وتحت تأثير هذا الانفعال أو الخوف قد ينتهي به الأمر الى أن يعطي لنفسه أهمية حسب تفكيره، محملاً أخطاءه التي ارتكبها للغير، ان حصيلة اطلاعاته البسيطة لا تقدم له سوى صورة خادعة وهمية لعالم غير حقيقي، في

هذه الفترة من حياته فان تذكراته تختلط بالخيال وتذكراته لن تكون سوى اختراع فهو لا يكذب ولكن يخطىء فقط.

ولكن مع مرور الوقت فان أهلية الطفل للشهادة ستتطور لمراحل متقدمة يسيطر على كل منها مدى اتساع قدراته العقلية فيبدأ بانه ينتبه أولاً الى الأشخاص ثم الى الأشياء في صورتها البسيطة وأخيراً يحاول أن يربط بين علاقتها بعضها ببعض وبين صفاتها فتقل الأخطاء بمرور الزمن.

وقد قام العالم Piaget Jean باجراء تجارب على بعض الأطفال في معهد جان جاك رسو بجنيف واستنتج منها أن التفكير لدى الأطفال يشبه الاحلام أو شبه الأحلام أو التخيلات، ما يسميه فرويد (التفكير الرمزي أو غير الموجه)، وهو عبارة عن اسلوب اقتصادي بدائي في التفكير، ويوجد لدى الأطفال في سن السابعة أو الثامنة ميل الى التركيز الذاتي، اذ كل شيء يرجعه الى نفسه، وفي هذه المرحلة تفوق الصور غير الواضحة على التفكير الدقيق، ولا يتأثر بما بينها من تعارض أو تناقض، ويسمى هذا الميل «مركزية الذات Egocentrism» وهي تسيطر على تفكير الطفل ولغته وسلوكه حتى السابعة من عمره، فالطفل في هذه السن يكون شديد الخضوع لدوافعه وحاجاته مستغرقاً في اهتماماته وأموره الخاصة، بما يجعله عاجزاً، عن الاهتمام بمشاعر الغير وشئونهم والتعاون معهم، عاجزاً عن تقدير الأمور والحكم على الناس والأشياء من وجهة نظر الغير بل ومن وجهة نظره وحده.

وفي هذه المعنى قال العالم Claparede إن الادراك التجمعي للطفل يقابله الادراك التحليلي لدى الكبار، اذ أن الطفل لا يرى الاَّ المجموع أو الشكل العام للصورة الاَّ اذا كانت اجزاؤها هي التي تسترعي اهتمامه بصفة عامة، اذ أن ادراكه ذو طابع اجمالي وذاكرته تميل الى النظرة الاجمالية، وتفكيره يخضع لنفس الاتجاه، فهو متداخل بين العمومية المنطقية وادماج الصورة التي يطلق عليها فرويد التكثيف (التركيز).

فالطفل في سن السابعة أو الثامنة عندما يسمع جملة ما يقرؤها فانه لا يقوم بتحليل عباراتها ولكن يكوِّن عنها فكرة اجمالية عامة غير واضحة تذوب في انطباع معين لديه، ويربط بين الصور غير المتناسقة ويقرب بينها بطريقة متناقضة، إن انعدام ملكة النقد والرقابة تجعله تحت تأثير التركيز (ارادة عدة أشياء في وقت واحد) يحيط تصوره للعناصر في دائرة واحدة مع كونها متناقضة بطريقة ظاهرة، ولا يهتم بهذا الأمر ما دام كل ما يهمه هو أن يمرح ويلهو.

وفي مثل هذه الظروف بانه لا يعقل مطالبة طفل صغير باداء الشهادة لأنه غير أهل لقول الحقيقة التي لا يميزها، اذ أنه يطلق لخياله العنان فيكذب، وهو لا يدري أنه يأتي أمراً منكراً يخالف الحقيقة اذ ليس لهذه الحقيقة أي كيان خاص في عقله لأن ادراكه أصلا اجمالي.

والطفل فخور بنفسه، شديد الزهو يجب أن يرى نفسه مركز الانتباه ومطمع الانظار، ومحور الاهتمام والحديث، كما يلجأ أمام الآخرين الى اظهار براعته ومهارته فيأتي بالحركات البهلوانية العجيبة

فانه يحاول اظهار براعته المعنوية بتقديمه لأفكار وروايات يستمدها من خياله يقصها على الآخرين ليبرهن على أنه جدير بالاعجاب والاستحواذ على اهتمام من يحيطون به.

أما الحقيقة فان الأطفال يكتسبونها رويداً رويداً اذ أنهم حتى في سن معينة لا يولونها اهتماماً لذاتها، فالأمر بالنسبةلهم لا يختلف، سواء أقالوا الصدق أم الكذب، ولا يميزون بين الحقيقة والخيال، ولا يهتمون بهذا التمييز ويلعبون بها في عباراتهم، فالطفل يلاحظ ولكن بذهن سلبي محدود، فهو يتابع بقصد حب الاستطلاع ليلهو ويتسلى.

والطفل غير المميز ليس لديه حد دقيق بين الحقيقة والخيال، بل انه يجد سهوله في التنقل بينهما، وهو لا يستطيع الاحتفاظ بمدركاته سليمة في مأمن من التحريف، بل سرعان ما يخضع لافعال خياله الخصب، فاذا به يخلط الحقائق ولا يميز بينها وبين الأكاذيب.

أما ما يصفه القانون من سن معينة يعتبرها قرينة على أن الطفل قد بلغ سن التمييز فهذا ليس قرينة قانونية، اذ أن الطفل لا يصبح مميزاً بين يوم وليلة، وإنما تنمو ملكه التمييز لديه شيئاً فشيئاً.

تأثير البيئة وخبرة الطفل:

ان لخبرة وتجارب الطفل دوراً هاماً في الشهادة، فشهادته ليست الاَّ انعكاساً لما تلقاه من تربية مع استعداداته الطبيعية ويجب كما هو الحال في الكبار ان نعتد بميوله للخير والشر، استعداداته الصحية والأخلاقية التي يستمدها من السلف وترسخ في تكوينه كلما تقدم سنه.

والطفل يستفيد من العناية به وبما يحاط به من عادات طيبة فتتحسن عيوبه، ولكن يلاحظ أن غرائزه تظهر على طبيعتها عندما تتاح الفرصة لها.

كما أن للبيئة تأثيراً في تكوين الطفل، فالسيء منها له نتائج غير طيبة على كثير من النواحي الأخلاقية، والصحية، وبخاصة النفسية. ويمكن ملاحظة ذلك بالنسبة للأطفال الذين أهملت تربيتهم أو تخلت عنهم أسرهم، اذ تكون رغبتهم شديدة للحصول على رضاء من يستجوبهم ويظهرون ذلك في اجاباتهم.

وهذه الملاحظة لا ينفرد بها هؤلاء الأطفال دون سواهم الاَّ أنها تمثل نسبة كبيرة لديهم نتيجة لما عانوه من حرمان، وكلما وجد مثل هؤلاء الأطفال تشجيعاً فانهم يندفعون الى الخيال والاختراع ويقصون روايات وحوادث يخترعونها أحياناً من أولها الى آخرها وخاصة اذا شعروا بعطف شديد من جانب المحقق.

فيحكى أن احدى الأسر الثرية ذات السمعة الطيبة تبنت طفلة لقيطة في سن خمس سنوات، في أحد الأيام أثناء وجود الطلفة في حالة انغماس قرأ رب الأسرة لزوجته جريدة بها أخبار خاصة بقضية جنائية هامة ينظرها القضاء، قرأ الزوج الحادث بصوت مرتفع وعلق عليه الزوجان ولم يبال رب الأسرة بوجود الطفلة اعتقاداً منه بأنها نائمة، بعد بضعة أيام لاحظت الزوجة ان الطفلة تقوم ببعض الحركات المخلة بالحياء اشتبهت الزوجة في أمر الطفلة وسألتها عن سبب قيامها بهذه الحركات، دهشت السيدة عندما سمعت الطفلة تقص عليها

رواية كاملة التفاصيل مصحوبة بما عانته من الآم نتيجة الاعتداء عليها من الشغالة وزوجها، وانتهى التحقيق بعد فحص الطفلة وتقرير الطبيب الشرعي الى كذبها واعترفت أخيراً بأن ما قصته كان محض خيال اذ أنها أرادت أن تتصرف كما تتصرف السيدات اذ أنها سمعت عن الزوجة حينما كان رب الأسرة يقرأ الجريدة.

ولا يفوتنا التنويه بأهمية دراسة العائلة للطفل ايضاحاً لمدى الصدق أو الكذب في أقواله، ذلك لأن الصبية التي تعيش في وسط شعبي يتميز بالاختلاط الزائد بين القاطنين فيه والوقوف على أمور جنسية كان من اللائق ان تجرى في خفاء، أو التي تعيش في صحبة موس تعتبر أهلاً لتأليف رواية مفصلة من الناحية الجنسية عن فعل خيالي تزعم وقوعه عليها.

كـــذب الأطفـــال:

ان الكذب يختلف بالنسبة للأطفال عنه عند الكبار حيث أنهم يتعمدون الكذب خلافاً للطفل الذي يطلق لخياله العنان فيخلط الكذب بالحقيقة فيكذب وهو لايدري أنه يرتكب أمراً منافياً للأخلاق ومخالفاً للحقيقة التي ليس لها كيان خاص في ذهن.

هذا الكذب غير المرضي قام بتقسيمه العالم Gorpheالى ثلاثة أقسام:

١ ـ الكذب الدفاعي:

هو أسلوب يلجأ اليه الطفل ليحمي نفسه، ويجنبها الجزاء نتيجة ارتكابه لبعض الأخطاء، وهذا النوع من الكذب يحدث

كثيراً، اذ يلجأ اليه الأطفال لاخفاء أسرارهم ويكثر بصفة خاصة لدي الصغيرات ذوات الصفات والعادات الرذيلة.

فيحكى أن صبياً تأخر عن المدرسة وعندما عاد سألته أمه عن سبب ذلك، فتمتم فتخيلت أنه ضحية اعتداء وقع عليه، وبدأت بأسئلة يجيب عنها الطفل متخذاً خط السير الذي اتجهت اليه أمه، وروى قصة كاملة ودقيقة بكل تفاصيلها لاعتداء أحد الأشخاص عليه وعندما اصطحبته في الطريق أشار اليها الى منزل أحد تجار القمصان، وعند عودة الأب ذكرت له الأم القصة بكل تفاصيلها كما ذكرها الطفل الذي حفظ القصة كاملة، احتار القاضي ودهش أما اصرار التاجر الفاضل الشريف الذي أثبت بكل الأدلة أنه لم يترك محله في ذلك الوقت وطول اليوم، وعندما اكتشف الحقيقة تبين أن الطفل لم يذهب الى المدرسة وقد ثبت كذب الطفل.

وقد قام الدكتور Gelma بفحص طفلة في سن الثانية عشرة مصابة بمرض سري اتهمت رجلاً ذا سمعة طيبة يقيم في منزلهم بأنه أقام علاقات جنسية معها، وذكرت تفاصيل دقيقة عن هذه العملية الجنسية، ولكن بعد الكشف الطبي اتضح انها عذراء ولا يوجد آثار اعتداء عليها كما ثبت أن الرجل ليس مصاباً بذلك المرض السري، وعند مواجهتها اعترفت دون خجل بالعلاقات الجنسية مع بعض الصبية.

ويحكى أن صبياً في التاسعة خرج من منزله ولم يعد الاَّ بعد انقضاء أربع ساعات كاملة كان والداه خلالها قد بلغا من القلق

أشده، وحين عاد سرد على والده رواية تفصيلية اختلقها ليبرر بها مسلكه، فقال انه بينما كان يطل من نافذة المنزل دعاه الى النزول رجل وسيم أنيق المظهر، فنزل الى الشارع تلبية لندائه، ثم طلب اليه هذا الرجل أن يصحبه الى خارج المدينة، وهناك انهال عليه هذا الرجل بالضرب دون سبب ولم يتوقف عن ذلك الاَّ حين قدم أحد رجال البوليس على صوت استغاثة، وهرب عندئذ الرجل واصطحبه رجل البوليس حتى باب المنزل وتأكيداً لصحة الرواية اختلق الصبي كذلك رقماً قال انه رقم رجل البوليس.

وكانت الرواية على مسحة من الجدية جعلت الوالد يصدقها، غير أنه حين همَّ الوالد بالسعي الى رجل البوليس لسؤاله عما حدث اعترف الصبي بأنه كذب وان حقيقة الأمر هي أنه قضى تلك الساعات مع أحد أقرانه.

ونشرت جريدة الأهرام المصرية في عددها الصادر بتاريخ ١٢/١/١٩٨٠م قصة خطف اختلقها طفل في سن عشر سنوات وهزت أجهزة البحث ثم اتضح كذبها وقيدت برقم ٥٠١٢ اداري قسم الجيزة سنة ١٩٧٩م.

٢ ـ الكذب الايجابي:

وهو اختراع من الطفل لاخفاء ميول مختلفة لديه كالميل الى الانتقام أو الى حب الذات أو الى الكسل.

وذكرت الدكتورة ماري ديفون بعضاً من أكاذيب الأطفال منها أن طفل سن ١٣ سنة يفتعل كل صباح حالة صرع كي لا يذهب الى المدرسة، وآخر في سن عشر سنوات ادعى أن والدته ذهبت لمقابلة رجل في آخر المدينة حتى يشغل والده ليذهب ويبحث عنها لكي يوفر هذا الطفل لنفسه الوقت للذهاب الى السينما.

٣ ـ الكذب الايحائي:

الطفل في حالة التكوين سهل الاقتياد للايحاء الخارجي الذي يؤدي الى تحريف الحقيقة، ومن النادر الاَّ يتدخل مثل هذا الايحاء في اتهام باطل يؤثر في شهادة الطفل ويرجع الكذب الايحائي الى عدة أسباب:

أ ـ الكذب نتيجة الأسئلة الايحائية المتعمدة:

قام أحد العلماء بتجربة بسيطة داخل أحد الفصول وكان في الفصل تلاميذ في سن الثامنة تقريباً، وألقى عليهم سؤالا مفاجئاً وطلب منهم أن يكتب كل تلميذ اجابته في ورقة خاصة حتى يضمن عدم تأثرهم بالايحاء الجماعي.

وكان هذا السؤال هو: ألم تروا الشخص الذي دخل فناء المدرسة هذا الصباح؟ «وبسؤاله هذا يكون قد قطع بدخول شخص معين الى الفناء في حين ان الحقيقة والواقع انه لم يدخله أحد في ذلك الصباح، ولكن سبعة منهم (من ٢٢ تلميذاً) كتبوا أسماء أشخاص

بأعينهم أما الباقون فانهم لم يحددوا أسماء أو أشخاصاً وان كانوا قد أجابوا بالايجاب، ثم ألقى الأستاذ سؤاله بطريقة أخرى وكان «أليس هذا الشخص من السيد «م»؟» وهذا الشخص المشار اليه هو أب لأحد التلاميذ محل التجربة فكانت اجابة ١٧ تلميذاً منهم بالايجاب بل ان البعض كتب أوصافه، ثم تابع الأستاذ أسئلته التي تضمنت كلام السيد «م» معه بغلظة ودفعه له بيده، فكانت الاجابة متضمنة لدخول هذا الشخص الى فناء المدرسة وتحدثه معه بغلظة ودفعه بل ان البعض أضاف انه شاهده وهو يضرب أستاذهم، ومن الغريب ان ابن السيد «م» نفسه قد انضم الى زملائه في اجابتهم هذه بالرغم من أن كل طالب منهم كان يسجل اجابته على حدة، فيَ حين كانت الحقيقة والواقع أن هذا الشخص لم يحضر الى المدرسة في ذلك اليوم.

ب ـ الكذب نتيجة الايحاء بحسن نية:

قد يحدث في حالات أخرى أن يوحي الوالدان بحسن نية وذلك عندما يستنتجان مثلا أن التهاباً بغشاء البكارة قد نتج من لمس جنائي فيأخذون في سؤال الطفلة، ويصلون بذلك الى الايحاء اليها برواية خيالية مبنية على الاتهام الباطل.

هذه الايحاءات ناتجة بحسن نية من بعض الأسئلة التي يوجهها الوالدان الى الطفلة وعندما تجيب على الأسئلة نفياً يتشدد الوالدان في الأسئلة مما يؤدي الى ثبات بعض الأقاويل التي لم تحدث.

جـ ـ الكذب نتيجة الايحاء المصحوب بخوف أو رهبة:

ومن أمثلته حالة امتزج فيها الخوف بالايحاء عند خمسة أطفال أشقاء أدوا شهادة كاذبة في احدى القضايا الهامة في ألمانيا كادت تؤدي الى أخطاء قضائية كبيرة.

وتتلخص القضية في أن خلافاً نشب بين زوجين، وكان الزوج موظفاً بسكة الحديد وعرف عنه حب المشاكسة وكان فوق ذلك عصبي المزاج، وبعد أن انفصل عن زوجته ضم اليه أطفاله الخمسة وكان يكبرهم في الثالثة عشرة من عمره، أما اخوته الأربعة فكانت أعمارهم تتراوح بين أربع سنوات وأحدى عشرة سنة، ولما كان الزوج يهدف الى طلاق زوجته فقد أخذ يستجوب أولاده بقسوة مصحوبة باعتداء، ويوجه اليهم أسئلة ايحائية عن سلوكها، وقد أدى ذلك الى أن أدلى الأطفال في التحقيق بان والدتهم كثيراً ما كانت تقضي ليالي حمراء مع آخرين ترتكب فيها أعمالاً مخلة بالحياء، بل ان احدى الفتيات ذكرت أن أحد الرجال الذين اتصلت بهم والدتها أولج فيها آلة خاصة، وقد وصفت هذه الآلة، هذه الرواية انتشرت في المدينة وأثارت سخط الناس على هذه الأم، وقبض على من أتهم من هؤلاء الرجال، وقد استمروا بالسجن الى أن مات أحدهم بسبب مرضه الصدري، ثم انتهى التحقيق بكشف أسرار هذه الرواية التي لم تكن لها أساس من الصحة ولا سند من الواقع وثبت أن الأطفال تأثروا بالخوف وبالايحاء مجتمعين وأن كل ما قالوه لم يكن الاَّ خيالا.

ويحكى أن ذهبت احدى المدرسات وهي سيدة تقية جداً للنائب العام وأبلغته أنها لاحظت أن بعض تلميذاتها الصغيرات يمارسن عادات قبيحة وانها استجوبتهن فاعترفن لها بأن القسيس هو الذي هتك أعراضهن، وباحالتهن للكشف الطبي ثبت أن غشاء بكارتهن قد فض من فترة طويلة لا تتفق مع الرواية التي أجمعن عليها باتهامهن للقسيس، واتضح من التحقيق فيما بعد أنهن فرطن في عرضهن مع شاب مراهق بجوار القرية، واتضح للمحقق بعد جهد كبير أن سبب اتهامهن للقسيس الذي توافقت عليه روايات الفتيات الصغيرات يرجع الى الأسئلة الايحائية المصحوبة بالخوف والتهديد. .

وقد سألت المدرسة احدى الفتيات وكانت تصرخ «من هو» فأجابت التلميذة مترددة وخائفة «انه . . انه حضرة» فتابعت المدرسة جملتها الارهابية صارخة أيضاً «حضرة من . .» ليس هنا سوى اثنين يقال لهما حضرة ـ العمدة والقسيس ـ فمن منهما فعل ذلك العمدة أم القسيس؟ وظلت تردد هذه العبارة حتى أجابت الطفلة لتتخلص من هذا الخوف إنه القسيس.

د ـ الكذب نتيجة الايحاء المتأثر بالوسط المحيط بالطفل:

وقد مثل البعض لهذا النوع من الايحاء بما حدث في مدينة فينتيون ببلجيكا حيث ارتكبت هناك عدة جنايات هتك عرض كانت ضحيتها بعض الفتيات الصغيرات وكان الجاني يقتل المجني عليها بعد أن ينال مأربه.

وفي أوائل شهر يونيو ١٩١٠ غابت احدى الفتيات عن منزلها وتدعى «سيسل» كانت تلعب مع زميلات لها ولما سألت أسرتها صديقتيها اللتين كانت تلعب معهما قررتا عدم مشاهدتها بعد اللعب، وعندما طال غياب الطفلة أبلغت الأسرة الأمر الى الشرطة، توجه أحد رجال الشرطة الى منزل احدى صديقات الطفلة الغائبة وتدعى «لويزة» ولما أيقظها من نومها تحت وابل من الأسئلة المفاجئة أجابت انها شاهدت الطفلة الغائبة تسير مع أحد الرجال دون أن تحدد أوصافه.

وقد حدث بعد ذلك أن ترددت بعض الأسماء على ألسنة أهل البلدة ممن يشك في سلوكهم عندما عثر على جثة الطفلة «سيسل» ملقاة داخل حفرة أعادت الشرطة سؤال الطفلة «لويزة» مرة أخرى فأجابت بأنها تتبعت الرجل المجهول حيث شاهدته يلقي بزميلتها «سيسل» في الحفرة، بل وصفت الجاني بأنه يرتدي ملابس سوداء وطويل القامة، وكانت هذه الاجابة نتيجة للايحاء الناشيء لما ترددده ألسنة الناس في المدينة.

وعندما مثلت «لويزة» أمام قاضي التحقيق أضافت الى أقوالها السابقة ان هذا الرجل قد حاول أن يصحبها معه أيضاً ولكنها هربت وشاهدته يصحب «سيسل» الى منطقة خالية فتوجهت بعد ذلك الى هذه المنطقة حيث شاهدت «سيسل» ملقاة في الحفرة وهي قتيل.

وقالت أيضاً ان صديقتها الفير هي التي ذكرت لها اسم هذا الرجل ويدعى «جان»، وبسؤال هذه الصديقة قالت انها سمعت

فقط ان الرجل من بلدة «ليبرن» ولكنها لا تعرف اسمه، وقد تبين من التحقيق إنه نتيجة لبشاعة هذه الحادث فان ألسنة الجمهور كانت تردد بعض الأسماء ومنها اسم «جان» والد الفتاة «الفير» الشاهدة الثانية، وقد زاد سخط الجمهور على «جان» وصور للجميع بصورة الانسان المفترس.

ذهبت احدى المدرسات بمعهد حماية البنات الى الفتاة «لويزة» الشاهدة الأولى وسألتها برقة: هل «جان» هو الذي قتل «سيسل»؟ فاكتفت الطفلة بالسكوت وأومأت بالايجاب وهي هادئة دون أن تتكلم، وعندما أعادت عليها السؤال مرتين قالت «نعم» وأضافت أن الصبية هم الذين يقولون ذلك وكانت هذه هي نقطة البداية لنجاة «جان» البريء، اذ تم فحص شهادة «لويزة» وتصرفاتها خلال الفترة التي تلت الحادث وتبين من خلالها أنها مازالت تذهب لتلعب مع صديقتها «الفير»، وانه من غير المعقول أن تذهب «لويزة» بعد الحادث الى «الفير» وتلعب معها أمام منزلها، كما أنه من غير المعقول أيضاً أن يرتكب «جان» فعلته بعد أن يصطحب سيسل من أمام منطقة منازلهم المتجاورة وأمام «لويزة»، وكلما اعادوا سؤال «لويزة» كانت أقوالها تتزايد باستمرار نتيجة شعورها بغضب الناس وسخطهم على مرتكب الحادث وانتهى التحقيق بالحفظ.

هـ ـ الكذب نتيجة تلقين الشهادة للطفل:

توجد حالات كثيرة تكون الشهادة فيها عبارة عن اتفاق بين الوالدين أو أحدهما، وبين الطفل للاضرار بشخص معين أو لابتزاز

أمواله، في هذه الحالة ترتب التمثيلية باحكام وقد يصل الأمر لاتمام ذلك الى حد ايذاء الطفلة نفسها، ونذكر هناواقعة حدثت بالقاهرة تتلخص في أن الفتاة (ك) ذهبت مع مخدومتها لزيارة أسرة الأخيرة حيث تركتها في منزل أسرتها وعادت الى منزلها، وقضت الفتاة هناك ليلة ذكرت بعدها أن شقيق مخدومتها دخل عليها أثناء نومها ووضع يده على فمها واعتدى عليها جنسياً وأضافت ان هذه العملية تكررت بعد ذلك عدة مرات ولمدة سبعة شهور عن طريق الاحتكاك الخارجي، من تاريخ البلاغ ٥ يونيو ١٩٧٦ ولمدة ثلاثة أشهر بعده ادعت الفتاة ان هذا الشخص وهو طالب بكلية الصيدلة قد جامعها وفض بكارتها، ثم جامعها ست مرات عقب فض غشاء البكارة، والغريب من الأمر أن مفتش صحة الحي الذي تقيم فيه أسرة الشغالة أثبت في تقريره المبدئي بعد توقيع الكشف الطبي عليها أن الفتاة تبلغ من العمر خمسة عشر عاما وان غشاء بكارتها ممزق، وتولت النيابة التحقيق وأحالت الفتاة الى الطبيب الشرعي الذي أثبت أنها تبلغ من العمر خمسة عشر عاماً فعلاً الاَّ أنه لا يوجد ما يشير الى جماعها سواء حديثاً أو منذ فترة بل أن غشاء بكارتها من النوع اللحمي السميك ذي الفتحة الواحدة المتوسطة الاتساع التي لا تقبل التمدد الذي يسمح بالجماع لبالغٍ دون أن يحدث تمزقات بالغشاء خلال هذه الفترة وقبل أن يرد الطب الشرعي كانت هناك محاولات من جانب الوالدة الفتاة للتنازل مقابل مبلغ معين وكانت أسرة المتهم على استعداد كامل الا أن ما ورد في التقرير الطبي من كشف لادعاءات الفتاة أوقف هذه المحاولات بمواجهة الفتاة بما ورد بالتقرير الطبي ثم

قررت ان شيئاً مما ذكرته لم يحدث وانها ادعت ما روته حتى تتخلص من العمل لدى مخدومتها وذكرت ان العادة الشهرية تعاودها بانتظام وان الطالب لم يتعرض لها وحفظ التحقيق، لقد حاول هذا الطالب ان ينفي الاتهام بكل قوة وثقة الاَّ أنه للأسف لم يجد من يسمعه حتى أقرب الناس اليه، وبماذا يكون موقف مثل هذا الشخص الذي لم يجد من يسعفه بالدليل الفني وقد أحبك الاتهام حوله..

يحكى أن سيدة اتهمت صبياً يعمل طرف زوجها بانه اعتدى على ابنتها الصغيرة البالغة من العمر ثلاث سنوات وقدمت ملابس الطفلة ملطخة بالدماء واتضح بعد ذلك ان هذه الدماء من طمث الأم وان الطفلة سليمة، وحالة أخرى يذكرها الدكتور Bayard لفتاة صغيرة رأت رجلاً يرقد بجوار أحد الكباري توجهت اليه الفتاة فأعطاها بعض الحلوى مما كانت معه، قدمت الأم بلاغاً ضد ذلك الشخص بتهمة أنه حاول الاعتداء على ابنتها بعد أن راودها، وقد حكم على الرجل بالحبس لمدة ثلاثة أشهر، استأنف المتهم الحكم وثبت أن اتهام الأم كان بقصد الانتقام من هذا الرجل الذي كانت على علاقة به وان ما قررته الفتاة نتيجة لتلقين الشهادة لها.

ان الأطفال يعيشون في الخيال الذي أثارته لديهم الكتب والأقاصيص كما لو كان هو الحقيقة ويطيب لهم أن يكونوا محط انتباه الآخرين، وكثيراً ما يرددون رواية لقنت إياهم، دون أن تكون صادرة عنهم تلقائياً.

ان الالتجاء الى الخبراء النفسيين في مثل هذه الحالات فيه شيء لصدور.

ونخلص مما سبق أنه نتيجة لوجود الأطفال تحت تأثير المحيطين بهم، والرأي العام الموجه ضد شخص معين ونتيجة للاستجوابات العديدة التي لم يراع فيها المحقق اختيار دقة أسئلته ومراعاة حالة الطفل، فان ذلك يؤدي الى أن يختار الأطفال ضحيتهم بالصدفة التي يبنونها على ما سمعوه عنها، فاذا كان السؤال: من القاتل؟ فان الأطفال سيختارون رجلا قاسيا وإن كان السؤال يتناول واقعة جنسية فانهم سيختارون ـ اذا كانوا في سن يسمح لهم بذلك ـ من تكون لهم علاقات نسائية..

ان انتباه الطفل متحرك، وتخيله مضطرب، وذاكرته غير ثابتة وتصوره للأمور ضعيف، فضلاً عن عدم وجود ملكة النقد لديه كل ذلك يجعل من نفسية الطفل تربة صالحة للتأثر بالايحاء ونمو الأكاذيب، وفي وقت البلوغ فان حب الاستطلاع الجنسي يشعره ويوقظ لديه ميولاً دفينه غير معروفة لمحاولة كشف هذه الأسرار.

الّا أن ذكاء القاضي وفطنته والمامه بقواعد علم النفس فيه ضمانة كبرى كي يستطيع أن يميز بين الشهادة الصحيحة والكاذبة وبين الشهادة الطبيعية والملقنة التي يدلى بها الأطفال أمام المحقق ومن أمثلة الشهادة الكاذبة:

١ ـ أن يستخدم الطفل ألفاظاً ليس من المعتاد أن تكون مألوفة بالنسبة لنظرائه من الأطفال.

٢ ـ اذا تمادى الطفل في مغالاته وأضاف اليها جديداً المرة تلو الأخري كلما مثل أمام المحقق.

٣ ـ تطابق شهادة بعض الأطفال تطابقاً تاماً مما يدل على انها ملقنة وان مصدرها الايحائي واحد.

٤ ـ ان يدلي الطفل بشهادته كما لو كانت مكتوبة بحيث لو طلب منه اعادتها أعادها دون زيادة أو نقصان وخاصة اذا كان بعد فوات فترة من الوقت نوعاً ما.

ويستحسن عزل الطفل عن غيره من أقرباء يحتمل أن يكونوا قد لقنوه ما يجري به لسانه وايجاده في وسط هادىء بعيد عن المؤثرات، وصرف ذهنه الى أمور تلهيه وتهدىء من روعه وتنسيه المناسبة التي لقن فيها أقوالا معينة وسؤاله بعد ذلك وهو بمعزل عن كل تأثير مغرض ولو كان هذا التأثير نظرة تقع من قريبة عليه، وكل ذلك أملا في أن يبوح بما يمكن أن تكتشف من خلاله الحقيقة.

وليس المراد بما تقدم وضع قاعدة عامة بمقتضاها يحكم على بلاغات الصغار جميعها بالكذب وانما المقصود هو تبديد الاعتقاد ببراءة الطفولة واخلاصها وتأكيد ضرورة النظر في أقوال الصغار بحذر كبير كي لا يوضع فيها من الثقة أكثر مما تستحق.

الا أنه انصافاً للحق فان هذا لا يعني ان الطفل لا يستطيع ان يدلي بشهادة على جانب كبير من الدقة، فالواقع أن الطفل قوي الملاحظة بالنسبة لبعض الأشياء دون بعضها فالعالم من حوله ما زال

جديداً يلفت نظره وأحياناً يستغرق اهتمامه فهو يوليه انتباها كبيراً يجعله أدق في وصفه لهذه الأشياء كبعض حوادث المرور مثلا.

وأحياناً نجد أنفسنا في حاجة الى ادلاءات الأطفال وخاصة اذا كانوا هم المجني عليهم، عندما يكون الدليل الوحيد في الدعوى هو شهادة الطفل التي يتوقف عليها الفصل في الدعوى، في مثل هذه الحالات التي قد يستعصي على القاضي الوصول عن طريقها الى الحقيقة فانه من الضروري الاستعانة بالاخصائي النفسي للشهادة لفحص أقواله في ضوء معايير الحقيقة التي سوف تتناولها فيما بعد، كما يجب تهيئة الظروف الملائمة عند أخذ معلومات الطفل في أي مرحلة من مراحل الدعوى والابتعاد عن مظاهر استعمال الشدة أو التخويف أو التدليل الزائد أيضاً، والحرص على سؤاله بجو تسوده الطمأنينة والثقة في النفس مع عدم التبسط الشديد الذي قد يؤدي به الى الانسياق وراء الخيال وخاصة بالنسبة للأطفال المحرومين من الحنان.

المطلـــب الثـــاني
ادلاءات النســـــاء

لقد قيل ان المرأة كشاهد ليست أفضل ولا أسوأ من الرجل اذ أنهما مخلوقان مختلفان فكل منهما قد زود بطبيعة تابع لها وهي تحدث آثارها ونتائجها في كل ناحية من نواحي حياته، اذ تصوغ نفسيته وتسير سلوكه وتحدده.

والشهادة كعقيدة، انما تخضع في تكوينها لهذا الاستعداد الطبيعي الذي قد يؤدي بأيهما الى أن يكون أقرب الى الحقيقة في وقت، وأبعد عنها في وقت آخر.

وقد اختلف العلماء في تمييز إدلاءات الرجل بالنسبة للمرأة فقاموا بوضع المسألة موضع الاختبار والبحث التجريبي واذ بهم ينتهون الى نتائج مختلفة تماماً، فبينما ذهب البعض الى أن شهادة الرجل أكثر دقة، ذهب آخرون الى العكس من ذلك تماماً، ورأى فريق ثالث انه لا توجد فروق ملموسة بين الجنسين، وفريق آخر يرى أن شهادة المرأة أكثر شمولا ولكنها أقل أمانة.

والشهادة ليست ملاحظة مجردة فحسب أو أمراً تختص بها الذاكرة بل انها تتصل بأعمق جذور الجانب العاطفي من النفس، فما يقع تحت حواس الشاهد في وقت ما انما يمتزج في معرفته وتقديره بحالته الطبيعية النفسية بوجه عام في ذلك الوقت بسبب الاختلاف بين الشهود الذين يوجدون في موقف خارجي واحد حتى بازاء الواقعة

الواحدة ويقال «إن موقف العانس غير موقف الرجل المتزوج» اذ أن بقاءها بغير زواج معناه أن المجتمع خذلها، وحرمها ما تعتقد أنه حقها ولم يقدرها قدرها، وتركها تتعرض لمخاطرة دون أن يهيء لها سنداً أو حماية، ولذلك فإن نظرتها العامة الى الوقائع الخارجية قد تتأثر بهذا الشعور الى حد انها قد تشك في أن كل ما يحدث في محيطها إنما هو من مظاهر إهمال المجتمع لها ودأبه على ايذائها ومضايقتها، فاذا قامت مشاجرة في الطريق وأصيبت فيها بحجر فانها تعتقد أنها انما أريد قذفها واصابتها عمداً بهذا الحجر، ثم تكون دون قصد شهادتها على هذا الوضع الذي قد يكون مخالفاً للحقيقة كل المخالفة وقد تتجه العانس اتجاهاً مضاداً لذلك فاذا بها تتسامى بعاطفتها وتحولها الى محيطها فتغدق عطفها وحبها على الآخرين حتى تعرف بأعمال البر والخير، الاَّ أن هذه الحالة النفسية أيضاً قد تكون سبباً في افساد شهاداتها اذ هي تنظر الى الخارج نظرة خير وتفاءل تحجب عنها نواحي الحقيقة التي لا تكون متفقة مع توقعها للطيبة والخير والايثار.

ومن هنا يمكن أن نجد للتفرقة تأكيداً لها في القدرات الحسية للجنسين فاذا كان السمع والبصر والتذوق يبدو واحداً الاَّ أن الحساسية اللمسية للمرأة تبدو أكثر دقة بالنسبة للجهاز العصبي ومن ثم يكون هناك فرق كيفي أو نوعي بينهما.

وقال البعض إن ما يراه الرجل قد يختلف عما تراه المرأة اذ أنها تلاحظ بدقة أكثر تفاصيل الملابس وألوانها وخاصة اذ تعلقت الشبدة برجل أثار عندها استلطافاً أو نفوراً اذ يأتي الاحساس عن طيب

خاطر في خدمة الانتباه أو العكس، لقد قال قائل إن حواء بعد أن أكلت التفاحة المحرمة كان أول ما صدر منها أن قالت: هل ورقة التين تناسبني؟ هذا بينما آدم يفكر في تلك اللحظة المذهلة ان كانت ورقة التين ذات طابع لائق أو لون جذاب، وهذا المثل الخرافي رمز لاختلاف الاتجاه العاطفي بين الرجل والمرأة يؤثر بلاشك في شهادة كل منهما، فاذا فرضنا أن كلاً من آدم وحواء سئل في تحقيق بعد ذلك عن أوصاف ورقة التين فلاشك أن حواء كانت ستقدم لها وصفاً دقيقاً، وليس معنى ذلك أنها أدق أداء للشهادة من آدم وأقوى منه ذاكرة، ولكنه يعني أن لها اتجاهاً خاصاً يختلف عن اتجاهه وبالتالي فسوف يكون له تأثيره على شهادتها.

والرجل ينظر ويحتفظ عما يثير انتباهه فهو ينظر الى سيقان المرأة والنصف الأعلى للجسم وإن لم يكن قادراً على وصف لون الشعر أو الملابس، والمرأة من ناحيتها تهتم بالتفاصيل ولون رابطة العنق.

والمرأة أضعف بطبيعتها من الرجل في نواح مختلفة فهي أكثر قابلية للتأثر بالايحاء وأقل إعمالا لملكة النقد، ورأيها عادة توجهه العاطفة أكثر من العقل، اذ الرجل يفكر للبعيد والمرأة تشعر بعمق، فالعالم هو القلب بالنسبة للرجل عكس المرأة فالقلب هو عالمها ويلاحظ أن المرأة مزودة بوسائل تمكنها من التأثير على الرجل تأثيراً بوقعه تحت سيطرتها وهي بالتالي تتخذ من هذا سبيلاً الى تحقيق أغراضها، وفي الغالب فإنها عنيدة متمسكة برأيها وتستعمل عند استجوابها لهجة هجومية كي تتخلص منه، كما تبدي مهارة كبيرة في

الدفاع عن رأيها، وقد تنهار في بعض الظروف فتلجأ الى البكاء الذي يتيح لها في بعض المواقف وقتاً للتفكير والتدبير حينما تحاول اخفاء الحقيقة، وتلفيق الأدلة الاَّ أن البكاء مع ذلك وسيلة لتصعيد بعض الدوافع النفسية المكبوتة واضعاف أثرها على المرأة وحينئذ يكون الاستجواب أكثر نجاحاً.

وقيل بحق إن المرأة ألفت في البيئة العائلية موقف التبعية للرجل وأنها أتقنت لذلك أساليب الدهاء والمحاورة وتخطي العقبات وبلوغ الغايات.

ولا أدل على دهائها بالقياس الى الرجل من أنه حين يخون الرجل امرأته يستعصي عليه أن يخفي هذه الخيانة، بينما تخون المرأة رجلها وتفلح مع ذلك في اقناعه برأيها بأنها هائمة بحبه، وذلك لبراعتها في اخفاء حقيقة مشاعرها.

يضاف الى ذلك أن المرأة تحظى عادة برقة معاملة لا تتاح للرجال، وهذه نتيجة طبيعية لانوثتها ومن أجل ذلك فان أي تردد أو اضطراب يعتريها لا يساء تأويله مثلما يحدث ذلك مع الرجال، وانما يفسره القاضي عادة بأنه وليد الخجل الطبيعي للمرأة.

ونظراً لاختلاف التكوين البيولوجي للمرأة عن الرجل بسبب دورات الحمل والرضاعة واختلاف دور كل منهما في الحياة فان ذلك يؤثر بدوره على حالة المرأة النفسية فتصبح حادة المزاج ويسهل استثارتها وقد يدفعها هذا في سهولة الى شهادة الزور، كما أن وظيفتها في انجاب الأطفال قد تكون السبب في كونها أقوى من الرجل بالنسبة

الى العاطفة الجنسية، ففي حالة الحب نجدها تضحي في سبيل ذلك، أما اذا تحولت الى كراهية فقد يصل بها الأمر الى الرغبة في الانتقام الذي يدفعها الى أن تتخلى نهائياً بأي وسيلة تحققها عمن كانت تحبه.

كما أن دورات الحيض تؤثر على نمو الحالة الانفعالية لدى المرأة فهي تبذل جهداً في سبيل ما تشعر به من الآم وهذا ما يكسبها قوة التحمل وتصبح بالتالي أشد قدرة على اخفاء مشاعرها وأفكارها ويظهر أثر هذه الاضطرابات التي تتعرض لها المرأة بوجه خاص بلوغ سن اليأس مما يؤثر على موقفها اذا استدعيت كشاهد اذ أن تلك الاضطرابات الفسيولوجية التي تصاحب فترات الحيض والحمل والرضاعة تجعل المرأة سريعة التأثر والانفعال بل قد تؤدي هذه الاضطرابات الى تقوية روح الأثرة وحب الذات لديها، وقد يكون هذا سببا في تحيز المرأة فيما تبديه من بيانات وخصوصاً اذا ما حاولت أن تتجنب الاجابة على الأسئلة الموجهة اليها.

ويخشى عند أخذ شهادة المرأة ان تتأثر بشخصية المحقق فتحاول الاطالة في إجابتها بذكر بعض التفاصيل التي لا داعي لها وبصفة خاصة في حالة إبداء الأقوال الكاذبة التي تؤدي الى التناقض في الشهادة، وهنا يجب تحذيرها من ذكر التفاصيل التي لا تهم الشهادة حتى لا تتمادي في هذا الأمر ويلاحظ أن جانب العاطفة والانفعال قد يؤدي بها الى أن تتفانى في الدفاع عمن تحب بقصد تضليل العدالة واذا كان الحب لا يتوارى، ومن السهل اكتشافه الاَّ أن الخطورة

تكمن في الشهادة التي تكون الكراهية محورها لأن من يكره لا يفصح عما يكنه للآخر فاذا ماواتته الفرصة لاداء شهادة ضد من يكرهه فسوف يصب فيها سمومه في الاتجاه المؤيد للاتهام، واذا كان هذا هو حال الجنسين فماذا يكون موقف المرأة عندما تتعلق الشهادة بشخص تمقته وتكرهه لسبب أو لآخر.

واذا أحست المرأة بفقد جاذبيتها للرجل. وهي لدى الغالبية السلاح الذي تعتمد عليه للتغلب على ضعفها أمام الرجل ـ فانها تصبح أنفذ حيلة على تحريف الحقائق في حالة ابداء الشهادة.

ومن هنا نجد أن هناك فرقاً بين شهادة المرأة والرجل وإن كان لا يلاحظ في الأحوال العادية الاَّ أنه في حالة معينة قد يظهر هذا الفرق بفحص دقيق للشهادة وتمعن فيها ذلك في حالات الاضطرابات الفسيولوجية الراجعة الى اختلاف التكوين البيولوجي للمرأة عن الرجل.

كما أن من السهل أن يقع التأثير بشكل أقوى على المرأة منه على الرجل وذلك لان لها طبيعة مستجيبة لمثل هذا التأثير.

ومن هنا قنن التشريع الاسلامي هذه المسألة على أساس أن شهادة المرأتين تعادل شهادة الرجل، وذلك حرصاً منه على اقامة التوازن وتفادي أخطار التأثير على أحداهما، قال تعالى: ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين، فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى . .﴾[1].

---

١ ـ سورة البقرة. الآية: ٢٨٢.

المطلب الثالث
ادلاءات المسنين

لا توجد سن محددة يتقرر فيها أن الشخص أصبح في مرحلة الشيخوخة، الاَّ انه كلما تقدم في السن كلما زحف اليه الضعف الذي يصل الى أعضاء الجسم وأجهزته، وحواسه وحالة قواه العقلية، ويحدث التدهور فى الأحوال العادية لها بصفة تدريجية غير ملحوظة، فاذا وصل هذا الضعف الى درجة واضحة سميت الحالة شيخوخة وقال «ميلوت» ان الشخص الذي يبلغ من العمر سن التسعين عاماً يعتبر غير قادر على أداء الشهادة ويعتبر كأنه معتوه لأن قدراته العقلية مثل حواسه (الذاكرة ـ النظر ـ والسمع بصفة خاصة) تصبح بحكم السن المتقدمة عاجزة عن ادراك الوقائع بصورة واضحة ونقلها كما حدثت وشهادته محل شبهة ويجب رفضها.

أما اذا اقترن ضعف الشيخوخة بقدر كبير في توازن الشيخوخة بحيث يخرج الحالة من أقصى الحدود الطبيعية المعتادة فانها تكون حالة مرضية من أنواع المرض العقلي تسمى بجنون الشيخوخة.

ويلاحظ أن درجة الثقافة تسمح بتأخر هذه المرحلة اذ أن كل ما يكتسب خلال السنوات الماضية يكون دائماً في صالح الفرد.

وعادة فان الشيخوخة تصيب الفرد في احدى قدراته اما الطبيعية أو العقلية.

والشيخوخة لفظ يبدو مرعباً لبعض الأفراد ولذلك يختلف تفاعل الناس له اختلافاً كبيراً الا أنه كلما زادت حضارة أمة من الأمم وزادت العناية بصحة أبنائها الجسمية والعقلية كلما زاد عدد الأفراد الذين يعيشون الى ما بعد الستين، وقد أصبح الاعتناء بهم ودراسة تطورهم دليلاً على مدى تقدم الدول واهتمامها بالانسان..

الَّا أنه من المسلم به أن هناك تغيرات نفسية وعقلية يصاحبها تعديلات في السلوك لذا يطلق على كبار السن تعبيراً مفاده «أن مرحلة الشيخوخة هي مرحلة طفولة ثانية»، وذلك بسبب الضعف العام الذهني الذي يصيبهم في السن المتقدمة، وأحياناً من قبيل المبالغة يطلق عليهم حكماء بسبب ضعف شهواتهم ونضوجهم الذهني الحاد الذي كونه العمل المهني وخبرة الحياة، ومع ضعف القوة التي تتسرب اليهم فان قدراتهم تقل اذ أنه عندما تتأرجح النار يقل الضوء.

فالانسان الذي جاوز سني شبابه وكهولته يجد نفسه في خريف العمر، وهو يفقد شيئاً فشيئاً ما اكتسبه في حياته من القوة والمضاء حتى يصبح على درجة من الضعف الجسمي وانكماش القوى العقلية وكأنما عاد طفلاً فأهليته للشهادة تقل نظراً لأنها تتأثر بتقدم السن.

وقام الدكتور Vergely بفحص سيدة عمرها ٧٦ سنة تشكو من اضطراب في الجهاز العصبي كما تشكو من اضطرابات في المعدة والتهاب الأعصاب كانت تتهم ابنها وبنتها بأنهما يقومان بأعمال مخلة بالآداب أمامها لدرجة أنها اتهمت ابنها بأنه طلب منها ارتكاب الفحشاء معها.

ومن التغيرات التي تحدث في هذه المرحلة هي تغييرات جسمية ونفسية.

أولا: التغييرات الجسمية ..

تحدث للانسان في مرحلة الشيخوخة تغييرات في الجهاز العصبي اذ ترتعش أطرافه ويقل احساسه المختلف فيقل مدى ابصاره وقوة سمعه، ويتعرض لأمراض الشيخوخة الأخرى كتصلب الشرايين وغيرها.

ثانياً: التغييرات النفسية ..

نتيجة لتدهور ذكاء الفرد في هذه المرحلة يضطرب حكمه على الأمور وتزداد فيه الانانية فيوجه اهتماماته الى نفسه، كما أن ذلك يؤدي الى أن تقل اهتماماته بالعالم الخارجي وتتركز في أضيق نطاق ويتصف بالتصلب في الرأي فيصبح عنيداً لا يغير رأيه مهما قدمنا له من الأسباب، ويضطرب أيضاً وجدانه وشعوره بشكل سيولة العواطف فينتقل من الاحساس الى نقيضه فجأة ولأسباب تافهة ويصبح سريع الغضب، وكل هذا يؤدي الى اضطراب ذاكرة المسن.

كل هذه التغييرات تؤثر في قدرته على أداء الشهادة من حيث:

١ ـ ضعف أعضاء الحواس:

ان الضعف في أعضاء الحواس يؤدي الى خداع الادراك فكل أعضاء الجسم تخضع لقاعدة التدهور مع تقدم السن، فان

الاضطرابات تظهر من خلال النظر والسمع والذاكرة، والنقص في الحواس يصاحبه خلل آخر، وخاصة الضعف في قدرة الانتباه حيث يقل وينقص الانتباه، لأنه يعيش في الماضي فيمكنه التركيز لكن بصعوبة كبيرة، ان نشاطه الذهني والجسمي يتدهور وأفكاره ترتعش كما ترتعش عضلاته.

ان احساس الأطراف تنقص بسبب تلف بعض الأعضاء العصبية ولا يوجد في المخ ما يسعفها في النقل بأمانه، وتصبح الخلايا غير صالحة في تركيزها وتركيبها فالمسن يميل الى أن يكمل بنفسه ـ بطريقة غير ارادية ـ النقص في احساسه ويكمن الخطر هنا اذ قد يفسرها تفسيرات غير واضحه فيشوهها.

٢ ـ ضعف الذاكرة:

يؤدي ضعف الذاكرة الى ضعف تذكرات المسن، اذ أن تذكراته تخضع لتأثيرات ذاتية، وضعف التذكر لدى المسنين يلعب دوراً رئيسياً بسبب الظروف العضوية للذاكرة مثل عدم انتظام وصول الدم الى الخلايا العصبية وسلامتها، وتختفي الذكريات طبقة بعد أخرى بنسبة عكسية لظهورها وتصبح شهادتهم محل خطورة عندما تؤثر عليهم ذكريات الماضي الذي يتمسكون به وتظل عالقة بأذهانهم وهم ينسون الأحداث القريبة بينما يتذكرون بسهولة وبسرور ذكرياتهم القديمة، وبصفة عامة فهناك افراط وإطناب يضاف عادة الى كل ما يمس الماضي.

٣ ـ درجة القابلية للايحاء:

ان الايحاء ينمو بسرعة نتيجة لوجود نقص وفراغات في الذاكرة والتذكرات تكون غير محددة، والمسن شكاك ولكن بالنسبة لبعض الأشخاص الذين يتمتعون بثقته أو بسلطة معينه يصبح سريع الثقة بهم والتصديق لما يقولونه ويجب لذلك تجنب ارهاق المسن عن طريق توجيه أسئلة سريعة في مجال الأجزاء غير المضمونة في ذاكرته، اذ انه يترك بسهولة للايحاء الذي يتسبب في احياء ذكريات قديمة تختلط بالذكريات الحديثة بواسطة تخيلات معينة، استطاع العالم «كازان» هو وزميله «باريسون» أن يدخلا في ذهن احدى السيدات العجائز سن ٨٠ عاماً أنها قد رأتهما منذ خمسة عشر عاماً في عرس تم في سانت بيير، كما امكنهما أن يجعلاها تردد بعض عبارات اسنداها الى العروس وكان ذلك غير صحيح.

وفي جميع الحالات يجب تجنب الأسئلة الايحائية وعدم اجهاد المسن بالاستجواب المطول حتى يمكن تجنب الأخطاء، ويمكن تجنب ذلك، في حالة ارتكابه لبعض الأخطاء ـ يأخذ أقواله على فترات متباعدة.

ومن ذلك يخشى ان كبار السن لا يكونون في حالة تسمح لهم بأداء الشهادة الكافية، وخاصة بالنسبة للوقائع التي يكون من الصعب عليهم ادراكها، فالمسن عبارة عن آلة استهلكت، ويجب التأكد من صلاحية أجزائها في الحالات المشكوك فيها بالكشف البسيط، وفي الحالات الهامة بالفحص الفني لحالة أعضاء الحواس

وقوة نشاط الذاكرة ومدى القابلية للتأثر بالايحاء وبصفة عامة مدى التوازن النفسي.

ومن الاضطرابات التي تصيب الذاكرة التأليف Confabulation وهي التحدث عن وقائع لم تحدث اطلاقاً على أنها وقائع حدثت بالفعل عن طريق سد الثغرات في الذاكرة بتصورات أخرى، وتوجد هذه الظاهرة في بعض الحالات النفسية.

ويذكر الدكتور «باريسون» ان حالات الاتهامات غير الصحيحة التي قامت على فراغات في الذاكرة كثيرة، منها أن سيدة تبلغ من العمر ٨٢ عاماً، في إحدى ملاجىء العجزة حضرت اليه وهي بصحة جيدة لتشكو من أنه قد سرق منها عدة أشياء وذلك لعدة مرات، وقالت إنها لم تر السارق الاَّ ليلا، وعندما خرجت من مكتبه صادفت مريضة أخرى قادمة لزيارته فعادت إليه وقالت إنها تعرفت على السارقة في حين أنها لم تر هذه السيدة من قبل، وليست لها علاقة بها، ثم وجدت بعد ذلك حاجاتها بالدولاب، وامرأة أخرى تبلغ من العمر ٨٨ عاماً كانت مصابة من قبل باضطراب عقلي قد اصيبت بكدمات في ذراعها واتهمت في ذلك أحد الخدم ولكن ثبت بعد ذلك أنها سقطت من سريرها ونسيت هذا الحادث واتهمت الخادم بذلك.

ان السن المتقدمة ليست سبباً لرد الشاهد، وكبر السن لا يمكن أن يتعلل به بسبب عدم أهليته خاصة الاَّ بالنسبة للضعف الملحوظ في القدرات العقلية والذهنية التي يمكن ثبوتها.

ومن هنا فان المشرع لم يهتم كثيراً بشهادتهم لأنه ادرك أن موضوع السن لا يمكن الفصل فيه طبقاً لقواعد ثابتة، لذا قد أحسن المشرع المصري صنعاً حينما نص في المادة ٨٢ على أنه لا يجوز رد الشاهد . . الاَّ أن يكون غير قادر على التمييز بسبب هرم أو حداثة أو مرض أو لأي سبب آخر . . وقد نصت على ذلك أيضاً المادة ١٠٦ من قانون المرافعات المدنية والتجارية بالتشريع الكويتي.

المطلـــب الرابـــع
ادلاءات المحتضـــر

هناك اعتقاد راسخ لدى الكثيرين بأنه يجب الثقة في الأقوال التي يدلي بها الفرد في نهاية العمر وهو أمام الموت، اذ لا يمكن الاَّ أن يكون مخلصاً لأنها تبدو في مظهر الصراحة المؤثرة التي تنبع من أعماق الضمير والتي تفصح عن الحقيقة..

وقد يحدث في كثير من الأقضية الخطيرة أن تبقى للمجني عليه قبل أن يلفظ أنفاسه فسحه من الوقت يفصح فيها لرجل شرطة أو محقق أو شاهد بأمور معينة ثم تفارقه الروح إثر ذلك، فتظل كلماته المنطوق بها في تلك الفترة النفسية الاستثنائية عنصر اتهام لشخص أو نفي للتهمة عنه، ودليلا وحيداً في القضية لاسيما حين لا تكون الجريمة قد وقعت على مرأى من شاهد لها..

وقد لوحظ بوجه عام أنه تعتري المحتضرين انتعاشة عرضية توهم بتحسن صحي هو في الواقع فترة من البطء الطارىء على سير الحيوية في طريق الاضمحلال والهبوط ولذلك يجب أن تكون الحالة الطبيعية والنفسية، التي لا تزال لدى المحتضر عند ادلائه بأقواله محل بحث دقيق من جانب الأخصائي.

والمحتضر غالباً ما يصاب بضعف طبيعي أو ضعف في القدرة الذهنية أو نوع من الخطرفة أو الهذيان بحرمانه من السيطرة على قواه العقلية والحسية والذهنية ومن الملاحظ أنه من الممكن أن تبقى حالته

الذهنية على ما هي عليه لمدة طويلة وتنتهي الى حالة من التجمد، فالحقد من الممكن أن يستقر في أعماق الفرد حتى النفس الأخير وربما تكون هذه الأقوال الأخيرة تعبيراً عنه دون وعي.

ولا يصح الانخداع بالصفاء الظاهري للمحتضر لأن سببه راجع الى اختفاء ذكرياته الحديثة تبعاً للانحلال التدريجي في قوة الذاكرة عنده وتكون صور الاحداث القريبة مختلطة لديه، وانها لتعاسة كبرى أن يجد الانسان نفسه أمام محتضر يتهمه اذ يصبح هذا المحتضر خصماً له شديد اليأس يعلو على أية مناقضة ويستعصي على أي بحث..

وتعتري نفوس المحتضرين المجني عليهم حالة من اليأس الحاد بسبب أنهم يموتون دون أن ينتقم لهم أحد حتى أنه ترتاب مخيلتهم شبهات غامضة، ونزعات الى تشديد وطأة المسئولية على الشخص المذنب، ويجوز أن يموت شخص ويكذب رغم ذلك إما حقداً أو انتقاماً أو خجلا أو حرصاً على عدم ايذاء عزيز لديه.

وقد حدث ان علت صيحات الاستغاثة في شارع بالقرب من مقابر مدينة طنطا ـ بجمهورية مصر العربية ـ وأسرع بعض سكان المنطقة ليشاهدوا سيدة وقد أمسكت بها النيران وهي تحاول تخليص نفسها منها، فأسرعوا وساعدوها على اطفاء النيران، ونقلت الاسعاف السيدة المحترقة وهي في الخمسين من عمرها الى المستشفى، وهناك أدلت بأقوالها واتهمت زوجها وصديقه بانهما اصطحباها من مدينة المحلة الكبرى في سيارة أجرة بحجة شراء

تلفزيون ملون، ولكنها انزلاها عند المقابر وسكبا الكيروسين عليها وأشعلا فيها النيران لقتلها ولفظت السيدة أنفاسها الأخيرة بعد ساعات من الادلاء بأقوالها، قبض على زوجها وصديقه ولكنهما أنكرا الواقعة تماماً وتبين للمحقق الصدق في لهجتها كما أثارت في نفسه الشكوك في أقوال الزوجة المتوفية نفسها، فأجرى تحريات بالمنطقة وتقدم شاهدان يقطنان في منزل لا يبعد سوى أمتار قليلة عن مكان الحادث وقررا أنهما شاهدا المتهمة وحدها، وهي تمسك بالثقاب وتشعل النار في نفسها وأنهما أسرعا الى نجدتها ولكن الكيروسين الذي كانت قد سكبته على جسمها ساعد في شدة اصابتها والقضاء عليها، وأمام التحريات وأقوال الشهود أفرج عن الزوج وصديقه وحفظ التحقيق في ١٩٨٠/٤/٤م.

ويحدث في قضايا القتل للثأر أن يختار المحتضر قاتله من أقوى أفراد أسرة الجاني الحقيقي ويسند اليه بدافع التشفي مسئولية القتل وذلك حين يكون هذا الشخص من أقوياء هذه الأسرة التي تعتمد عليه قوة وجاهاً..

في عام ١٩٦٧ أبلغت بواقعة اعتداء شديد على شخص نقل الى مستشفى محافظة سوهاج وكان مصاباً بعدة طعنات قاتلة قال ان ثلاثة من الشبان لا يعرفهم اقتحموا منزله في منتصف الليل لسرقته وعندما قاومهم طعنوه، وفروا هاربين، وقد تبين بعد ذلك أن المتهمين ثلاثة من الشبان الذين يترددون عليه، وكان سبب ذلك أمراً مخجلا مما دعى المحتضر الى اخفاء أسمائهم خشية الفضيحة.

وقد يكذب المحتضر في الافصاح عن سبب موته حرصاً على أن يذكر بالخير عقب وفاته، وبدافع صلة من القرابة تربطه بالمعتدي، والحرص على عدم ايذاء هذا الأخير الى حد يحيط ذكراه بالحقد والكراهية، فكم من أم أصابها ابنها بجراح بالغة وأصرت مع ذلك على القول بانها أصابت نفسها بهذه الجراح عرضاً.

ولذلك فقد استقر في علم النفس القضائي مبدأ وجوب التخلي عن الاحساس بقدسية أقوال المحتضرين وضرورة التزام الحيطة والحذر في تقويم هذه الأقوال.

ولا يمكن ايجاد حل موحد لقيمة أقوال المحتضر لأن الأمر يتوقف على الجزء المصاب ونوعه ومدى تأثيره على العمليات العقلية للادلاء بالأقوال بالاضافة الى القيمة الأخلاقية للمحتضر، اذ حينما يكون المحتضر مجرماً بالسليقة أو مجرماً معتاداً فانه من الأكيد أن روحه لا تتحول أمام الموت الوشيك وتصر حتى آخر لحظة لها على الشر.

وأحياناً تكون قدرة المحتضر الذهنية في حالة ضعف شديد مع أنها ليست مصابة بخطرفة وهذيان المحتضر كما أنه يكون سريع التأثير بالايحاء.

فيحكى أن ثلاثة لصوص أسبان سطوا على منزل Paradies وقتلوا زوجته بعد أن أصابوه بجراح شديدة وقد أدلى الزوج بأوصاف دقيقة من الجناة حيث تم القبض على اثنين منهم، وكان في نفس البلدة رجل اسباني يدعى Borras أشيع في البلدة أنه المتهم الثالث

الهارب وقبض عليه وعرض على الزوج وهو طريح الفراش في حالة احتضار غير مصابة بخطرفة أو هذيان، ونظراً لما أشيع عن بوراس بأنه المتهم الثالث، فقد تأثر الزوج بهذا الايحاء لدرجة أنه تعرف عليه بأنه القاتل وهو ثالث المتهمين خلافاً للحقيقة، فقبض على بوراس وحكم عليه بالاعدام ثم خففت العقوبة الى السجن وقد قبض على المتهم الثالث الحقيقي بعد أن قضى بوراس ثلاث سنوات بالسجن.

ولهذه الأسباب النفسية التي قد تعتري المحتضرين دون اكتشافها ولكونه مجنياً عليه وهو خصم في الدعوى نرى الاَّ يعتد بأقواله الاَّ اذا توافر لها دليل آخر يؤيد هذا القول أو قرائن تعززه.